الحُدَيدة قال التاج في مستدرك مادَّة ح د د: والحُدَيدة مصغَّرًا قرية على ساحل بحر اليمن. سمعتُ بها الحديث». والحديدة في هذا اليوم مدينة مبنيَّة على البحر وميناؤها لا يرام ولهذا لا يوافق تعمير بلدته وتحسينها وترقيتها درجات الحضارة والعمران او نموّ تجارتها. واغلب هذه التجارة البنّ. والبنّ الذي كان في سابق الزمان يصدر من مُخا لم يَعدْ يخرج منها اليوم شيء. وقد اصبحت مُخا قريةً خاملة الذكر ليس لها شيء من الاهميَّة وجميع اصناف البن الذي يصدر من اليمن يجيء على طريق الحُدَيدة. وفي هذه المدينة مرسلان وثلاث راهبات وجميعهم من رهبانيَّة الكبوشيين. واحد هذين الابرين ماروني الاصل (ي. عذبا) من تلامذة كليَّة الاباء اليسوعيين في بيروت واسمهُ في الرهبانيَّة الاب فُلجنس Fulgence وبهذا القدر كفاية والسلام

حبيس بحيرة قَدَس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

القسم الثاني

١

ان المسافر متى بارح الوادي الخصيب الذي فيهِ ترتفع قرية درما الزاهرة متدرجةً على هيئة السلَّم يأخذ الطريق المؤدية الى قرية ترنج فلا يمشي فيها غير يسير حتى يصل الى سلسلة جبال عالية تُعرف بجبل ترنج. وهناك تنبت بعض اشجار ضئيلة ما بين صخور قطَّعتها المياه والعوامل الجويَّة معطيةً اياها اشكالًا وهيئاتٍ غريبة. على ان ما يُشاهَد في كلّ هذه البقعة من خَبَث الحديد يُنبئ بان الناس عالجوا فيها عمل هذا المعدن ازمانًا بهمَّةٍ ونشاط

وكان جبل ترنج في ايَّام الرواية التي نسرد حوادثها مكتسيًا بغابات كثيفة من الارز والسنديان والصنوبر والشربين يختلط معها قليل من الاشجار المثمرة كالاجاص والجوز.

وكان يأوي الى هذه الغابات وحوش مختلفة الانواع بينها كثير من الضواري الرائعة في تلك الآكام المنيعة دون ان ترى ما يقلق راحتها الّا ما ندر. وكان في جملة الضواري اسود تزعج الفضاء بزئيرها ودِبّة يرنُّ الجوّ من نشيمها وغورة تمزّق الآذان زماجرها. غير انّهُ مع ما في الغابات المذكورة من الاخطار شرع بعض الحطّابين والمدّنين يقيمون فيها وكان الاخيرون يستثمرون ما هناك من ركاز الحديد و يرسلونهُ الى اصحاب الاكوار العديدة في قرية دروما التي كانت آهلةً وقتئذٍ كما في ايامنا الحاضرة بقوم ذوي جدّ ونشاط واقبال على الصنائع

وفي ذات يوم لما طلع الفجر على الوهاد القريبة من جبل ترتج سُمع صوت البوق وانتشر نباح الكلاب وصهيل الخيل واقبل الناس على الذهاب والمجيء بين قريتَي دروما وترتج منهم الخيّالة وحملة السلاح مع زُمر من الخدَم تسوق عددًا من الكلاب المدرَّبة على الصيد. وكان الخيالة تارةً يتوارون وراء الصخور او جذوع الاشجار وتارةً يسيرون في الشعاب الضيّقة صفًّا طويلًا كأنّهُ وشاح منشور يبسط على الجبل لباس البهجة والسرور

وكان ذاك اليوم يوم قنص خرج فيهِ كل من مقدَّم جبيل ومقدّم البترون. وبما انَّ الطريق في قمة الوادي لم تكن تصلح لسلوك الخيل ترجّل الكلّ عندها ودفعوا افراسهم الى حملة السلاح وتوغلوا في الشعاب الشاهقة ما بين اشجار الغاب

وكان المقدَّمون واكابر الناحية المدعوين للاشتراك في القنص قد اتوا بحملة سلاحهم وعدد من حشمهم يحملون الصقور والبزاة المضرَّاة على مطاردة الوحش ويسوقون الكلاب السلوقيّة الكبيرة التي كان نباحها يملأ الوادي وبعضهم اتوا ايضًا بالفهد وهو نوع من صغير النمور مبقّع الجلد مدرَّب خاصّةً على اقتناص الايائل وكانوا يُردفونهُ مشبومًا على مآخير خيلهم فمتى لاح لهم أيل رفعوا شبامهُ واطلقوهُ وراء القنيصة التي اذا جدَّ الفهد في مطاردتها وقفأ الصقور عينيها بمناقيرها الحادّة لا تلبث ان تخور وتضعف

وكان يجري القنص في تلك الايام على الوجه الآتي وهو ان سوّاس الكلاب يتوغلون في الغابات فتسوق كلابهم القناص امامها الى ناحية القانصين الذين يتناولون القسيّ من

حملة سلاحهم ويرفعون الكُمم الموضوعة على رؤوس الصقور ويشتدّ نباح الكلاب وتبتدئ معركة الصيد (١)

واتفق انهُ قبل اليوم الذي نحن بصددهِ مرّ في الناحية سِرب من اللقلق غير انهُ كان قد بقي في غابة ترتج قليل من الطير المذكور اقعدهُ التعب عن اللحاق برفاقهِ. فلمّا سمع الصياح طار في الجوّ مذعورًا واخذ يدوّم راسمًا دوائر كبيرة على حسب عادتهِ. ولكن ما كان غير قليل حتى ابصرتهُ الصقور فخفّت لمطاردتهِ

ولمّا كانت الصقور قد هاجمت اللقلق واحدًا لواحدٍ دافعت هذه الاخيرة عن نفسها حقّ الدفاع مدّةً طويلة فكانت تارةً تضرب بمناقيرها وتارةً باجنحتها. وكأنّ احد الصقور آنس عدم اقتدارهِ على غلبة خصمهِ وخاف ان تنجلي المعركة عن وقوعهِ صريعاً فترك ساحة الوغى وانضمّ الى اثنين من رفقائهِ. امّا اللقلق فما صدّق ان تخلص من عدوّه حتى توارى خلف الغابة غير انّ لقاءًا آخر اخذ يحلّق في الجو صاعدًا على خطٍ مستقيم ظانًا انهُ ينجو من هول الموقف ولمّا كانت الصقور عاجزة عن اللحاق بهِ في ذلك العلوّ الرفيع اقامت تترقّبهُ ريثما ينخفض. وكان مشهد الفريقين المتقاتلين موثّرًا لان كلًّا منهما كان قد امعن في الفضاء حتى كاد يخفى على العين لاختلاط بياضهِ بزرقة السماء

وكان بعد مرور عشر دقائق ان اللقلق هبط منخفضًا امّا لكونهِ تعب من التدويم في الفلاء او لأنهُ لم يقوَ على استنشاق الهواء بسبب كثرة تمدُّده في المنطقة التي وصل اليها فما كادت الصقور تبصرهُ حتى انقضّت عليهِ تقاتلهُ

وبعد ان جرت بين الفريقين معركة حامية علّت فيها اصوات النقارة وقع اللقلق على الارض صريعاً فلثّهُ مدرّبو الكلاب وناولوا الصقور قطعة من حشاه ثم حملوا الجثة بانتصار وكان الدم يقطر منها

وما مضى قليل من الزمن حتى لاحت ما بين الاشجار المتجردة عن اوراقها في مثل ذاك الفصل من السنة رؤوس حيوانات تطلب الفرار. وكانت عبارة عن سرب من الايائل والغزلان شرّدتها الكلاب

غير انّ الايائل المسكينة ما كانت تفرّ من عدوّ حتى تسقط ما بين يدي آخر.

---

(١) السيد محمد المنكلي: آداب الفانص

هنا تمزّقها انياب الكلاب وهناك مناقير الطيور وسهام القانصين. وكانت الصقور تدوم فوقها ثم تنقضّ بسرعة البرق على اعناقها فتضربها باجنحتها متعلّقةً بابدانها المتمزّقة ولا تلبث لحة بصر حتى تفقأ عيونها النجلاء بمناقيرها المحدّدة المنمّقة فكانت البهائم المذكورة تخرّ متجندلةً على الارض دون ان تستطيع قياماً

وبعد ساعة من الزمان انتشرت جثث القانص في شعاب الغاب وبقاعه وكان بينها ظباء وذئاب وخنازير وحشيّة وعول وضباع... ولمّا خفّت حركة القنص وخمد أوارها وفد عبد المنعم مقدّم جبيل فقال لزين مقدّم البترون:

— اخبرني ساقة الكلاب انهم شاهدوا في قمة الجبل دبًّا كبيرًا

— عليّ قنصهُ. قال هذا وتناول قوسهُ وسهامهُ وأهاب بكلبهِ فلحقهُ واخذ يتسلّق الجبل راقيًا الى الناحية التي دلّوهُ عليها. فلمّا رأى منهُ عبد المنعم هذه الحرارة المفرطة لم يقوَ على كتم مسرّتهِ بنجاح حيلتهِ. واما زين فلمّا انتهى الى المحلّ المعيّن اطلق كلبهُ لتحريش الدب فما كان غير قليل حتى سمع من اقرب جهة اليهِ زمجرةً مخيفة تلاها ظهورُ اسد كبير الجثة(١). ولم يكن زين يتوقّع ملك الوحوش فطارت نفسهُ شعاعاً وفطن انّ مقدّم جبيل غشّهُ ودبّر حيلةً لهلاكهِ. غير انهُ نبذ الخوف والهلع واختار من كنانتهِ احسن النبال فسدّدها بزيد التأني على قلب الاسد فطارت اليهِ باسرع من لمح البصر ولم يسمع على اثرها غير زئير مختنق. ثم استلّ خنجرهُ ووقف ينتظر بقدم راسخة هجوم سيد الضواري لأنهُ كان يظن انهُ جرحهُ فقط. ولكن السهم كان لإحكام تصويبهِ قد خرق قلب الاسد خرقًا من ناحية الى اخرى. فلمّا تأكّد زين فوزهُ وانتصارهُ بادر للنزول الى ترمج حيث رجد القنيص مجموعاً هناك تحت الادواح القائمة تجاه كنيسة القرية وعندما وقع بصرهُ على مقدّم جبيل اكتفى بان قال لهُ: «ارسل رجالك ليأخذوا جثة الدب فقد جعلتهُ قتيلًا لا يستطيع ضررًا»

امّا عبد المنعم فقطن للاشارة ولم يطلب مزيدًا

٢

وكان زين قد اطّلع من نفس منيف على ما يضمرهُ لهُ من الشرّ والمقاصد الخبيثة وكان بين هذين الاثنين فروق ظاهرة: زين حرّ مستقيم وحازم وشجاع. وعبد المنعم محتال

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى — المشرق ١: ٨٠٥

لا تفوقهُ الشجاعة ولكن شجاعتـهُ تشبه شجاعة النمر الذي يزحف ويؤثر مباغتة الفريسة . على ان اخلاص زين للمقدَّم رزق الله ومحافظتهُ على الديانة الكاثوليكية جعلاه مكروهاً عند عبد المنعم الذي لم يكن يبالي بالأقسام التي حنث بها

وكان عبد المنعم يعرف حقّ معرفة انهُ ما زال مقدَّم البترون حيًّا فلا سبيل لهُ الى تحقيق مطمعهِ الخبيث اي تنزيل خاله الامير رزق الله عن ولاية الجبل ولهذا كان دائماً يبحث عن حيلة يدبّرها لاهلاك زين . ولمَّا اطَّلع على ما تقاسيهِ راحيـل من المتاعب الميليَّة ظن انهُ يسهل عليهِ ان يقترن بها ويضم مقدَّمية البترون الى مقدَّميَّتهِ

وكانت جبيل في قديم الزمان تُسمى بالمدينة المقدسة للإله ادونيس وتعتزّ مفتخرةً بما تشيَّد فيها من الهياكل والاروقة العظيمة لعبادة الإله الموما اليهِ (١ غير انها في القرن الخامس عشر تزلت من مقامها السابق لان كلَّ ما فيها من الهياكل والاروقة المذكورة كان قد خرب وانهدم فامتلأت الشوارع بأنقاضهِ التي اتخذ معظمها لبناء رصيف المرفإ او لتشييد ما هنالك من الاستحكامات الضخمة . ولمَّا اضطرَّ الصليبيون الى مغادرة هذه المدينة بعد حصار عنيف كان النصف منهـا تقريباً قد صار خرابًا (٢ وانقطعت السفن عن غشيان ميناها لامتلاء معظمهِ ردمًا فكانت تؤثر زيارة بيروت وطرابلس (٣ وتقف بعض المرات في مرفئي البترون وانفة (٤

وكان السور والقلعة غاية ما بقي من آثار هذه المدينة ولا يشك احد في ان القلعة اثر عظيم من اعمال الجبابرة القدماء ولهذا ابى المؤرخون ان ينسبوهُ الى الرومانيين واقل من ذلك الى الصليبيين بل آثروا ان يعزوهُ الى القدماء من سكان جبيل مشيّدي هيكل سليمان (٥ على ان برجها العظيم كان ممَّا يستوقف الابصار خاصةً بارتفاعهِ وضخامتهِ وكان يشرف على مسافة بعيدة في البحر ويطلّ على جميع السهول المجاورة

وكان مقدم جبيل اذا وقف في البرج المذكور متأمّلاً في سعة املاكهِ تتزنَّح اعطافهُ من الخيلاء والعطرسة وينسى ان ارتقاءهُ الى الولاية كان فضلاً ومنَّةً من خالهِ الامير رزق الله ويتوهم كما هو شأن النفوس الصلفة انهُ هو باني مجدهِ بيده

---

١) بعثة فينيقية . وردوسو رحلة سوريَّة . المشرق ٣ ٢) صبح الاعشى للقلقشندي
٣) راجع هيد : تاريخ تجارة الشرق ٤) القلقشندي
٥) الكتاب المقدس

وكان الجميع يتذكرون وقتئذٍ ان أسرة لامبرياك ملكت ولاية جبيل في ما مضى من الزمان (١ واحتلّت تلك القلعة الشامخة التي فيها يُقيم الآن عبد المنعم ايرب. ولمّا اجبرتهم الاحوال على الرحيل بعد هزيمة الصليبيين وتفرّق شملهم ذهبت الى جزيرة قبرس (٢ فتوطنت فيها. ولم يبقَ منها في لبنان غير فرع واحد وهو الذي تنتمي اليهِ راحيل قرينة مقدّم البترون (٣. ولمّا كان عبد المنعم يملك معظم الاملاك التي كانت لهذه الاسرة الشريفة توهّم انّ ميراث راحيل يعود اليهِ ايضاً اذا تيسّر لهُ الاقتران بها

وهل من احد كان يقوى على منعهِ من انجاز مشروعاتهِ المذكورة ؟. نعم رجل واحد اعني زيناً مقدّم البترون المعروف بشجاعتهِ وبسالتهِ. ولكنّهُ كان يقول في نفسهِ انهُ عند مسيس الحاجة يعرف كيف يبيد هذا المانع الحائل دون سعادتهِ وعظمتهِ. وكان يتوهّم ان الوسائل الموصلة الى مقصودهِ سهلة هيّنة فأخذ يشنع على زين ويظهر معايبهُ ومثالبهُ ولكن لم يلقَ من يسمع لكلامهِ لان الكلّ كانوا يعرفون لهُ قدره واستقامته

ولما ارسل المقدم زين فرقة من جنودهِ لاحتلال قلعة سمار جبيل المهجورة من زمان طويل اراد عبد المنعم ان يحتج على ذلك مدعياً بان القلعة لاحقة بمقدميّة جبيل. غير ان حقوق المقدم زين في القلعة كانت واضحة ظاهرة لا تحتمل المماراة والمماحكة. فمن ثم عدل عمّا نوى واخذ يبحث عن وجه آخر

هذا ما كان يخطر في بال عبد المنعم كلما صعد الى قمة قلعة جبيل مسرّحاً النظر في املاكهِ فيرى ان فظيعةً واحدة تستطيع ان تخلصهُ من هذا الخصم العنيد. ولا يخفى انهُ برهن بما مضى من اخبارهِ ان ليس لهُ ضمير يصدهُ عن ارتكاب الفظائع

اما المقدم زين فلم يكن عارفاً بشيء من مقاصد عبد المنعم وهب انهُ اطلع عليها لم يكن ليهتمّ بها

٣

امّا راحيل فكانت في قصر البترون تترقّب بذاهب الصبر عودة قرينها وتتمعّن في النصائح التي سمعتها من الاب يوحنّا وتهتمّ في كيفيّة المحافظة عليها لانها كانت قد آلت ان تتغلّب على اهوائها وتسير في الطريق التي طلبت هي ان ترتشد اليها

(ستأتي البقيّة)

١) راجع دوكانج: كتاب الأسر ٢) دي ماس لاتري: تاريخ قبرس ٣) المشرق ١